وفى علم الأصول يُقسِّمون العلم إلى : علم دراية ، وعلم رواية ، فعلم الرواية كالذى يحفظ القرآن الكريم بالقراءات السبع أو العشر أو الأربعة عشر ، ومع ذلك ربما لا يعرف تفسيره ؛ لأن علْمه بالقرآن علْم رواية فحسب ، أما الذى تخصص فى تفسيره ومعرفة معانيه وأحكامه ، فهذا العلم يُعَدُّ علْم دراية ، فالدراية إذن علْم بالتفصيل ، والرواية علم بالإجمال الكلى .

ومن حكمته تعالى أن يكون حَفَظة القرآن ليسوا من العلماء - إلا فيما نَدُر - لأن العالم إذا ما وقف حفظه عند كلمة معينة ربما دعاه علْمه إلى التصرُّف فيها بلفظ آخر ، كما فى (فتبينوا ، فتثبتوا)(١) مثلاً ، أما الذى حفظ القرآن روايةً فحسب ، فإذا وقف أمام كلمة ناسياً لها ، فإنه لا يتجاوزها حتى يفتح الله عليه بما نسيه ، وبذلك حفظ الله كلامه .

ونلحظ أن هذا الفعل جاء بصيغة المضارع ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] وجاء بصيغة الماضى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. (١٤)﴾ [المرسلات] ولكل منهما مدلول ، فساعةَ يقول سبحانه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] يعنى : لا وسيلةَ إلى أنْ يُعْلمك أحد بها أبداً ، لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال . أما ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. (١٤)﴾ [المرسلات] فتدل على أنه نفى أنْ يعلمه أحد قبل الآن ، ومن الممكن أنْ نعلمه نحن .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨)﴾ [المدثر]

وقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾ [المرسلات]

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا .. (٩٤)﴾ [النساء] .

وقال : ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤)﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)﴾ [القارعة]

وقال : ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤)﴾ [البلد]

وقال : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾ [القارعة]

وقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩)﴾ [الانفطار]

وقال : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)﴾ [القدر]

وهكذا فى كل (وَمَا أَدْرَاكَ) تعنى : أنك لم تكُنْ تعرفه من قبل ، لكن سيخبرك الله به ، أما صيغة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (٦٣)﴾ [الأحزاب] فتعنى أن هذا الشيء المبهم سيظل كذلك مُبْهماً لا يطلعك الله عليه ، ومن هذه الأمور وقت قيام الساعة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾ [الأحزاب]

ولم يخبر الحق سبحانه عن وقتها ؛ لأن الإبهام قد يكون أوضح البيان ، فالله تعالى أبهم عنَّا ساعة الموت ، فلا يدرى أحد منا متى يموت ، وهذا الإبهام جعلك تنتظره فى كل لحظة من لحظات حياتك ، فالحقيقة أنه بهذا الإبهام أوضحه كل الإيضاح .

كذلك أبهم الله مثلاً ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان ؛ لأنه سبحانه لا يريدك مُتعبِّداً ليلة واحدة ، إنما يريدك مُتعبِّداً طوال هذه العشر لتستزيد من الثواب وتحب العبادة لذاتها لا لمجرد الثواب عليها .

وكذلك أخفى الله تعالى عنا وقت الساعة ، لكى نتوقعها فى كل وقت ، وننتظرها كل لحظة ، وهذا أَدْعى للاستقامة والخوف من المعصية ، ومن أدراك أنْ تقومَ الساعة وأنت على معصية الله ، إذن : الإبهام هنا عَيْن البيان .

وهو مقصد من مقاصد الحق سبحانه ؛ ليشيع الحكم فى كُلِّ زمان ، وإلا لو عرف الإنسانُ أجَلَه لسار فى الدنيا كما نقول (على حَلِّ شعره) يُعربد فيها كما يشاء ، ثم يتوب قبل الموت ؛ لذلك لم يجعل الله تعالى للموت سبباً ، فحين لا ترى سبباً قُلْ مات لأنه يموت ، وصدق مَنْ قال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ورحم الله شوقى حين قال فى الموت :

فى الموْتِ ما أَعْيَا وفى أَسْبابه ... كلُّ امْرى رهن بطىِّ كتَابه
أَسَد لَعَمْرك مَنْ يموتُ بظُفْره ... عنْد اللقاء كمَنْ يموتُ بنَابه
إنْ نامَ عنكَ فكُلُّ طبٍّ نافعٌ ... أَوْ لَم يَنَمْ فالطبُّ مِنْ أذْنَابه

وكثيراً ما نرى المريض يموت بسبب حقنة أعطاها له الطبيب ، أو عملية جراحية غير مُوفَّقة .

وصدق مَنْ قال :

سُبْحانَ مَنْ يرثُ الطبيبَ وطبَّه ... ويُرى المريضَ مصَارعَ الآسينَا

لكن مع ذلك ، يجعل الله لها علامات لُطْفاً بنا ورحمة ، علامات

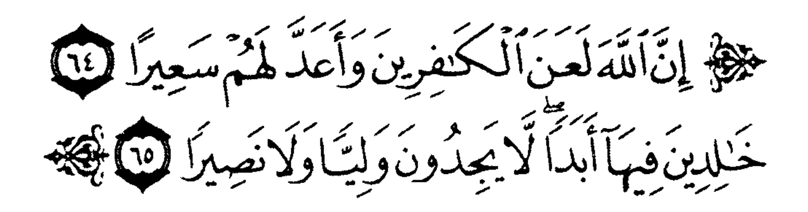
صغرى وعلامات كبرى ؛ لذلك يقول سبحانه عن الساعة : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. ﴿١٥﴾﴾ [طه]

يعنى : قاربْتُ أنْ أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى ، والعلامات الكبرى ، لأنها أصبحتْ قريبة ، وقلنا : إن الهمزة فى (أخفيها) همزة إزالة يعنى : أزيل خفاءها ، مثل همزة (أعجم) تقول : أعجم الكتاب أى : أزال عُجْمته وإبهامه بوضع النقط على الحروف ، ومنه سُمِّيتْ الكتب التى تُوضِّح معانى المفردات : معاجم .

وقد تكون الإزالة بالتضعيف مثل (قشَّرت البرتقالة) يعنى : أزلْتُ قشْرتها .

فمعنى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. ﴿١٧﴾﴾ [الشورى] أى : لا أحدَ سيخبرك بها ولا أنا ، وكما ضَنَّ الحقُّ بعلمها على الخَلْق جميعاً فقد ضَنَّ على نبيه وحبيبه محمد ، ولو كانَ مُخبراً بها لأخبر نبيه ، حتى ولو سراً بينه وبينه ، دون أنْ يُبلِّغ الناسَ بها ، لكن أبداً لا هذه ولا هذه ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله إذا سُئِلَ عن الساعة قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :



﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو فى هيئة رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ».

لعنهم يعنى : طردهم من رحمتـه تعالى ، وأبعدهم أى : فى الدنيا ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) ﴾ [الأحزاب] يعنى ناراً تستعر وتتأجج وتتوهج ، وهذا فى الآخرة فى اليوم الذى قال الله فيه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وهذه النار المتأججة باقية دائمة لا تنتهى ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً .. (٦٥) ﴾ [الأحزاب] وسمعنا بعض العلماء يقولون عن الأبدية أنها ذُكِرَتْ فى كل الآيات التى تحدثتْ عن نعيم الجنة ، لكنها لم تُذكر فى عذاب الكفار يوم القيامة .

وصاحب هذا القول لم يستقرىء كتاب الله جيداً ، فقد ذُكر هذا اللفظ : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً .. (٦٥) ﴾ [الأحزاب] فى موضعين : أحدهما هذا الذى نحن بصدده ، والآخر فى سورة الجن فى قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً (٢٣) ﴾ [الجن]

وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن يأتى لفظ التأبيد فى كل آيات الجنة ، ولا يأتى إلا فى موضعين لأهل النار ، ذلك لأن رحمة الله سبقتْ غضبه ، فاقتضى ذلك أنْ يُبشِّر المؤمنين بتأبيد النعيم ودوامه .

أما فى جزاء الكافرين ، فيقول : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٦٥) ﴾ [الأحزاب] ولا يذكر لفظ التأبيد ، لعل ذلك يُحنِّن قلوب هؤلاء ، ويعطفهم إلى طريق الله الرحيم بهم .

وذكر لفظ التأبيد فى هاتين الآيتين ليحقق المبدأ ويُقرِّره فحسْب ، ومن رحمته تعالى أن تسبق رحمته فى البشارة ، وتتلطف بالنذارة .

فهذه الحكمة الإلهية مقصودة ، وكانت تُؤتى ثمارها المرجوة ،

فكانت باباً لإيمان الكثيرين من الكفار ، وسبق أنْ ذكرنا قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لما جاءه ضيف وطرق بابه ، فسأله عن دينه ، فلما عَلم أنه غير مؤمن أغلق الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، لكن سرعان ما عاتب الله تعالى نبيه إبراهيم فى ذلك وقال له : يا إبراهيم ، لقد وَسعْتُه طوال حياته فى مُلكى وهو كافر بى ، أتريد أنْ يُغيِّر دينه فى ليلة تستضيفه فيها .

فهرول إبراهيم - عليه السلام - حتى لحق بالرجل ، وأعاده إلى ضيافته ، فقال الرجل : ألم تردَّنى عن بابك منذ قليل ؟ قال : بلى ، ولكن عاتبنى ربى فيك ، فقال : نِعْم الربُّ رَبٌّ يعاتب أولياءه فى أعدائه ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

وهم فى خلودهم فى النار ﴿ **لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** (٦٥) ﴾ [الأحزاب] أى : مالكاً يتولَّى أمرهم ﴿ **وَلا نَصِيرًا** (٦٥) ﴾ [الأحزاب] ينصرهم أو يدافع عنهم .

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ (٦٦) ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه الأبدية التى ستكون للكفار فى النار يذكر وَصْفاً للحالة التى سيكونون عليها فى النار ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ** .. (٦٦) ﴾ [الأحزاب] التقليب معناه تغيير الأمر وتصريفه من حال إلى حال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ** (١٩٦) **مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** (١٩٧) ﴾ [آل عمران]

يعنى : أسفارهم ونشاطهم فى حركة التجارة بين الشام واليمن ، وما يترتب على هذه الحركة من أموال وثروات .

فقوله : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ .. (٦٦)﴾ [الأحزاب] أى : تقلِّبهم الملائكة ، فكلما نضج جانب قلبوهم على الجانب الآخر كما نُقلِّب نحن (سيخ الكباب) على النار لتستوعبه كله ، فيتم نُضْجه .

وخَصَّ الوجه ، لأنه سمَة الإعلام بالشخص ، وأشرفُ أعضائه وأكرمها ، ومنه أُخذتْ الوجَاهة والوجيه ، وكلها تدل على الشرف ، ونظراً لأنه أشرف الجوارح ، فالجوارح كلها تحميه وتدافع عنه ، وسبق أنْ قُلْنا : لو أن سيارة أسرعتْ بجوارك ، ولطختْ ثيابك ووجهك بالوحل مثلاً ، ماذا تفعل ؟ أولاً : تنشغل بوجهك وتزيل ما أصابه من أذىً ، ثم تلتفت إلى ثيابك .

ولتعلم أهمية الوجه ومنزلته ، اقرأ قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٢٤)﴾ [الزمر] فمنْ شدَّة العذاب يتقيه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه .

أو : أن معنى التقليب من عذاب إلى عذاب ، وقد أعطانا الحق سبحانه صوراً متعددة لوجوه الكافرين في النار ، والعياذ بالله ، فقال مرَّةً : ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ .. (٦٠)﴾ [الزمر]

وقال : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ[1] (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[2] (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس]

وقال : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[3] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [القيامة]

---

(١) الغبرة : ما دقَّ من التراب ، قال تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)﴾ [عبس] أى : عليها غبار وتراب كناية عن الذل والشقاء . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

(٢) القترة : شبه دخان يغشى الوجه من شدة الكرب . [القاموس القويم ٢/١٠٠] ، والقترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان . [لسان العرب ـ مادة : قتر] .

(٣) بسر : أظهر العبوس ونظر بكراهية وكلح وتغيَّر ، وقوله تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤)﴾ [القيامة] كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد . [القاموس القويم ١/٦٦] .

فالوجه هنا لا يأخذ صورة واحدة ، إنما يأخذ ألواناً متعددة وأحوالاً شتى ، تدلُّ على تنوع ما يتعرضون له من العذاب والإيلام ، والوجه هو الدليل الأول على صاحبه ، والمترجم عَمَّا بداخله ، فحين يتغير لك صاحبك مثلاً تلحظ ذلك على وجهه ، فتقول : مَا لك تغيَّر وجهك من ناحيتى ؟ أو لماذا تقلَّب وجهُكَ عنى ؟

وهؤلاء حالَ تقلُّب وجوههم فى النار ، يقولون : ﴿ **يَـٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ** (٦٦) ﴾ [الأحزاب] وهم الذين كانوا بالأمس يُؤذون الله ، ويؤذون الرسول ، ويؤذون المؤمنين .

كلمة ﴿ **يَـٰلَيْتَنَا** .. (٦٦) ﴾ [الأحزاب] كلمة تمنٍّ ، وهو لَوْن من الطلب تتعلق به النفس وتريده ، لكن هيهات ، فهو عادةً يأتى فى المُحَال ، وفى غير الممكن ، كما جاء فى قول الشاعر :

أَلاَ ليْتَ الشبابَ يَعُودُ يَوْماً ... فَأُخبرهُ بمَا فَعَلَ المشيبُ

وقول الآخر :

لَيْتَ الكَواكِبَ تَدْنُو لِى فَأَنظمُهَا ... عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لكُمْ كَلِمى

فالشباب لا يعود ، والكواكب لا تدنو لأحد ، لكنها أُمنية النفس ، كذلك هؤلاء يتمنَّوْنَ أنْ لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا رسول الله ، لكن هيهات أنْ يُجدى ذلك ، فقد فات الأوان .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ، فهم ما أطاعوا الله وما أطاعوا رسول الله ، لكن حجتهم :

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧)
رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾

السادة : جمع السيد ، وهو الآمر المنفِّذ على غيره ، ولا يغير عليه أحد . والكبراء : هم الذين يأخذون منازل فى قومهم ، على قَدْر ما يُؤدُّون لهم من خدمات ، فسيد القوم أو كبير القوم لا يتبوأ هذه المنزلة من فراغ ، إنما من مواهب وإمكانات تؤهله لهذه المنزلة ؛ لذلك لا يجد غضاضة فى أنْ يقول له الناس : يا سيدى . لأنه دفع ثمن هذه السيادة وهذا هو السيد الحقيقى .

وقد تُؤخَذ السيادة بالقوة والجبروت والقهر ، دون أن يُقدِّم السيدُ شيئاً يَسُودُ به قومه ، وهذا تلصُّص على السيادة يبغضه الناس ؛ لذلك فإن الشرع الإسلامى لم يغفل هذه السيادة الحقيقية ، ولم يغفل وجاهة الناس ومنزلتهم ، فقيَّم ذلك كله مالياً فى شركة سماها شركة الوجوه[1] ، فرأس مالى فى الشركة أموال ، ورأس مالك وجاهتك ومحبة الناس لك ومنزلتك فى المجتمع .

والناس يُحبُّون هذه السيادة الحقَّة التى أخذها صاحبها بحقها ؛ يحبونها لأنهم ينالون خيرها ، وينتفعون بها على خلاف السيادة المسروقة التى أخذها صاحبها عُنْوةً ، فهم لا يستفيدون منها بشىء ، بل هى سيادة تضرُّهم ، وتأكل خيراتهم .

لذلك قلنا فى العبودية : إنها كلمة نكرهها ، إنْ كانت عبودية بشر لبشر ؛ لأنها عبودية تعطى خير العبد لسيده ، إنما العزّ كله فى أنْ تكون العبودية لله تعالى ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده .

وتأمل كيف كانت العبودية شرفاً وتكريماً لسيدنا رسول الله حينما

---

(١) شركة الوجوه : هى أن يشترى اثنان فأكثر من الناس دون أن يكون لهم رأس مال اعتماداً على جاههم وثقة التجار بهم ، على أن تكون الشركة بينهم فى الربح فهى شركة على الذمم من غير صنعة ولا مال ، وهى جائزة عند الحنفية والحنابلة ؛ لأنها عمل من الأعمال . وأبطلها الشافعية والمالكية ؛ لأن الشركة إنما تتعلق بالمال أو العمل . وهما هنا غير موجودين . قاله الشيخ سيد سابق فى « فقه السنة » (٣/٢٩٦) .

خاطبه ربه بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ① ﴾ [الإسراء] فعبودية محمد لله هى التى أوصلته إلى هذه المنزلة التى لم يصل إليها بشر سواه .

وصدق الشاعر[1] حين قال :

حَسْبُ نَفْسِى عِزّاً بأنِّى عَبْدٌ   يَحْتفى بى بلاَ مَواعِيدَ رَبٌّ
هُوَ فى قُدسه الأعَزِّ وَلكنْ   أَنَا أَلْقَى مَتَى وأيْنَ أُحبُّ

فإنْ أردْتَ أنْ تقابل ربك ، فالأمر فى يدك ، فأنت تحدد مكان المقابلة وزمانها وموضوعها ، فى الشارع ، فى البيت ، فى العمل ، فى المسجد مجرد أنْ تتوضأ وتقول : الله أكبر تصبح فى حضرة ربك ، ثم أنت الذى تُنهى المقابلة إنْ شئتَ ، وربك عز وجل لا يملُّ حتى تملُّوا . فأىُّ عزٍّ فوق هذا ؟

فى حين أنك إنْ أردتَ أنْ تقابل رئيساً مثلاً أو وزيراً فَدُون هذا اللقاء عقبات ومصاعب ، وليس لك من أمر هذا اللقاء شىء ، فهو الذى يحدد لك الزمان والمكان ، حتى ما تقوله ، وهو الذى يُنهى المقابلة .

أنت فى عبوديتك لله تعالى ، ربُّك هو الذى يطلبك لحضرته ، ويغضب إنْ دعاك ولم تُجِبْ ، فنِعْم الرب ربُّك ، ونِعْمتْ العبوديةُ عبوديتُك له سبحانه .

وهنا يُلْقى الكفار باللائمة على سادتهم وكبرائهم ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ٦٧ ﴾ [الأحزاب] ويريدون الانتقام منهم ، وأنْ يُنفِّسوا عن أنفسهم بأنْ يروهم فى العذاب جزاءَ ما أوقعوهم فى الشرك ، وزيَّنوا لهم المعصية .

فيقولون : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ .. ٦٨ ﴾ [الأحزاب] أى :

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

عذاب مضاعف ؛ لأن ضلالهم كان كذلك مُضاعفاً ، فقد ضلُّوا فى أنفسهم ، وأضلُّوا غيرهم .

وفى موضع آخر يحكى لنا القرآن قول الكافرين يوم القيامة : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

وفى آيات كثيرة يحكى لنا القرآن حوارات تدور بين الكافرين ، يُلْقى كل منهم التهمة على الآخر ، كما حكى عن إبليس قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ولم يكتفوا بمضاعفة العذاب لسادتهم ، إنما طلبوا لهم اللعن ، واللعن الكبير ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب] فاللعن لأنهم ضلُّوا فى ذواتهم ، وينبغى أن يكون كبيراً ؛ لأنهم أضلوا غيرهم .

ونلحظ هنا أن كل نداء للرب - تبارك وتعالى - يأتى دائماً بغير أداة النداء ، لماذا ؟ قالوا : لأن النداء له أدوات تختلف باختلاف المسافة بينك وبين المنادى ، والنداء طلب الإقبال ، فإنْ كان المنادى بجوارك تقول : محمد افعل كذا ، فإنْ كان بعيداً عنك تقول : أمحمدُ . والأبعد منه : يا محمد . والأبعد : أيا محمد . وهذه الأدوات مبنية على مَدِّ الصوت بحسب المسافة .

إذن : ماذا تقول حين تنادى ربك وإنْ لم تكُنْ أنت قريباً من الله ، فالله قريب منك ؟ لا تستخدم أداة النداء لا للقريب ولا للبعيد ، لذلك ورد فى القرآن لفظ (ربّ) منادى فى خمس وستين آية بدون أداة

نداء ، أولها قول سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦)﴾ [البقرة]

إلى قول نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٢٨)﴾ [نوح]

ويكفى فى هذا القُرْب قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾ [ق]

لذلك لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ : أقريبٌ ربُّنا فنناجيه ؟ أم بعيد فنناديه[1] ؟ فأنزل الله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ..(١٨٦)﴾ [البقرة]

إذن : فالله تعالى قريب منا بالفعل ، وإنْ حدث بعد فمنك أنت ، وأكثر ما يكون العبد قُرْباً من الله حين يكون مضطراً ، حتى إنْ كان بعيداً عن الله قبل الاضطرار .

وفى آيتين فقط من كتاب الله نُودى الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ بأداة النداء (يَا) الأولى : ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾ [الفرقان]

والأخرى : ﴿وَقِيلِهِ يَـٰرَبِّ .. (٨٨)﴾ [الزخرف]

وهذان الموضعان حكاية عن كلام النبى ﷺ ، فلماذا لم تأت أداة النداء إلا من محمد ﷺ فى نداء ربه ؟

---

(١) أورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ٣٠) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبى الشيخ وغيرهم من طرق من حديث معاوية بن حيدة قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ ، فقال : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت عنه ، فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. (١٨٦)﴾ [البقرة] .

قالوا : لأن سيدنا رسول الله كان شديد الحرص على هداية قومه ونُصْرة دعوته ، حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

وقد مَرَّ رسول الله بمواقف صعبة لدرجة جعلَتْه يستبطيء نصر الله ، فالله تعالى أنزل عليه : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٥١)﴾ [غافر] ومع ذلك زلزل رسول الله والذين آمنوا معه كما قال سبحانه : ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ.. (٢١٤)﴾ [البقرة] فخاف ﷺ أن يكون بعُد عن ربه ، وهذا البُعْد ما هو إلا مظنّة من رسول الله ، أو اتهام للنفس .

فلما ذهب ﷺ يدعو ربه ويشتكي إليه أنَّ قومه هجروا القرآن نادى ربه من منزلة البعيد ، فقال : (يا رب) وكأنه ﷺ ظنَّ في نفسه التقصير أو الفشل في مهمته ورأى أن ذلك يُبعده عن ربه ، لكن أنصفه ربه وأكَّد نداءه ، بل وأقسم به ، فقال الحق سبحانه : ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٨٩)﴾ [الزخرف]

أي : أقسم بقولك يا محمد : ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾ [الفرقان] والحق سبحانه يُقسم بما يشاء على ما يشاء ، يُقْسم بالملائكة وبالجماد ، يقسم بالنبات ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لم يُقْسم بأحد من الخَلْق إلا برسول الله في قوله تعالى : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾ [الحجر]

أي : وتعميرك ، أو وحياتك يا محمد .

وكما أقسم سبحانه بحياة نبيه محمد أقسم بقوله ، فقال سبحانه : ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [الزخرف]

ثم يخاطب الحق سبحانه عباده المؤمنين ، فيقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الذين آذوا الله ، وآذوا رسول الله ، وآذوا المؤمنين دَلَّ على أن المسألة ليست تعصُّباً لمحمد ، إنما هذا مبدأ سائد فى كل رسل الله ، وليس معنى منع إيذاء محمد أن تؤذوا غيره من إخوانه الرسل ، فقال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

وموسى ـ عليه السلام ـ كانت له فى رحلة دعوته علاقتان : علاقة مع الفراعنة ، وعلاقة مع بنى إسرائيل ، ولم يكُنْ موسى ـ عليه السلام ـ رسولاً إلى الفراعنة ، إنما أُرسل إلى بنى إسرائيل ؛ لذلك قال موسى وهارون لفرعون : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] فهدفه تخليص بنى إسرائيل من استعباد فرعون .

أما دعوته لفرعون إلى الإيمان بالله وإظهار المعجزة أمامه لعله يؤمن ، فجاءت على هامش دعوته الأساسية لبنى إسرائيل ، ومع ذلك لم يَسْلَم موسى عليه السلام من إيذاء فرعون ، فقال عنه ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [غافر]

وقال : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف]

وطبيعى أنْ يُؤْذَى موسى عليه السلام من فرعون ، وقد جاء ليبطل ألوهيته المزعومة ، لكن كيف يُؤْذَى من بنى إسرائيل ، وهو الذى جاء لينقذهم من قبضة فرعون ، ومما كانوا فيه من العذاب والاستعباد ؟

قال العلماء : إن بنى إسرائيل آذوا موسى حين آذوا مَنْ بعثه ، الله سبحانه وتعالى ، فقالوا له : ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣)﴾ [النساء]

وقالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. (١٨١)﴾ [آل عمران]

وآذَوْا موسى حين قالوا معترضين على ما رزقهم الله من المنِّ والسَّلْوى ، فقالوا : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ..(٦١)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن المنَّ هو سائل يشبه العسل ، يتساقط مثل الندى فى الصباح من الأشجار ، والسَّلْوى طائر يشبه السّمان يسوقه الله إليهم دون تعب منهم ، لكنهم قوم لا يؤمنون بالغيب ، ولا يريدون هذا الطعام الجاهز ، فهم يريدون شيئاً محسوساً يزرعونه ، ويُعدونه بأنفسهم .

ثم آذَوْا موسى عليه السلام فى شخصه ، حين اتهموه بقتل أخيه هارون حين صَعَدا الجبل[١] ، ومات هارون هناك ، فقالوا : إن موسى حقد على أخيه فقتله ، فجعل الله الملائكة تحمل جسد هارون وتمرُّ به

(١) هذا القول قاله على بن أبى طالب فيما أخرجه ابن أبى حاتم وذكره ابن كثير فى تفسيره (٥٢٠/٣) فى تفسير الآية ، قال : « صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون ، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته ، كان ألين لنا منك ، وأشد حياء فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بنى إسرائيل فتكلمت بموته ، فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم » .

على بنى إسرائيل وهو سليم لا جُرْحَ فيه ، وهذا معنى قوله تعالى :
﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

وقال آخرون : بل اتهموا موسى عليه السلام بمرض فى جسده ؛ لأنه عليه السلام كان شديد الحياء ، ستِّيراً ، يحتاط فى ستر نفسه عند استحمامه وعند قضاء حاجته ، فقالوا : ما فعل ذلك إلا لعيب يريد أنْ يستره .

ومنهم مَنْ قال : به برص . ومنهم مَنْ تجرَّأ واتهمه بعيب فى أعضائه التناسلية ، فشاء الله أنْ يبرئه مما قالوا ، فنزل ذات يوم النهرَ ليستحم ، فأمر الله حجراً فأخذ ثيابه بعيداً عنه ، فجرى موسى عليه السلام خلف الحجر وهو يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر فرأوه مُبرأً من العيوب التى اتهموه بها(١) .

أو : أن قارون لما حصلتْ الخصومة بينه وبين موسى عليه السلام استأجر امرأة بغياً ، وقال لها: اتهمى موسى على مَشْهد من الناس ، فشاء الله أنْ يجتمع الناس وتنطق هى وتقول : قارون فعل كذا وكذا ، فبرَّأه الله بذلك(٢) .

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يُرى من جلده شىء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب جلده : إما برص ، وإما أدرة ، وإما آفة . وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، فذلك قوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب] . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦/٤٣٦) .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٣٦) وعزاه لابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أنهم اتهموه بالزنى وأتوا بالمرأة وقالوا لها : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى عليه السلام : أنشدك بالله إلا ما صدقت . قالت : أما إذ نشدتنى بالله فإنهم دعونى وجعلوا لى جُعْلاً على أن أقذفك بنفسى ، وأنا أشهد أنك برىء ، وأنك رسول الله ، فَخَرَّ موسى ساجداً يبكى .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب] فينفي عنه العيب ، ثم يُثبت له الوجاهة والشرف .

﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب] وأيُّ وجاهة بعد أنْ أظهر الله براءته ، وبيَّن كذب أعدائه ، فالوجاهة هيئة تدل على أنه مقبول الرجاء ، مقبول الدعاء ، لا يجرؤ أحد أنْ يرميه بعيب بعد ذلك ، ولا أنْ يتهمه بذنب لم يفعله ؛ لأنهم علموا أن لموسى رباً يحميه ، ويدافع عنه .

ومن عدالته سبحانه وتعالى مع خَلْقه أن مَنْ يُرْمَى بذنب لم يفعله يُعوِّضه عنه بأنْ يستر عليه ذنباً فعله ، ولا يفضحه به ، فواحدة بواحدة ، إلا شيئاً واحداً كان مع موسى - عليه السلام - فحين لقي جواب الله ، فكأنه غرَّه كرم ربه معه فقال : يا رب ما داموا قالوا فيَّ كذا وكذا ، أسألُكَ ألاَّ يُقال فيَّ ما ليس فيَّ ، فقال : يا موسى ، أنا لم أفعل ذلك لنفسي ، فكيف أفعله لك ؟ والمعنى أنهم يقولون في حَقِّ الله تعالى أكثر من ذلك .

إذن : أبقى الله الكفر ليطمئن كل مَنْ أُنكر جميله ، وكأنه يقول له : لا تحزن فأنا الخالق ، وأنا الرازق ، ومع ذلك كفروا بي وأنكروا الجميل .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

سبق أن تكلمنا عن معنى التقوى ، وهى أن تجعل بينك وبين الله وقاية ، فالحق سبحانه له صفاتُ جمال ، وصفات جلال : صفات الجمال الفضل والرأفة والمغفرة والغنَى والنفع .. إلخ وصفات الجلال : الجبار المنتقم ذو البطش .. إلخ فالتقوى أنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تقيك منها لأنك لستَ مطيقاً لبطش الله وانتقامه .

ومع ذلك يقول أحد العارفين : احرص على معيتك مع الله ، نعم لأنك حين تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تقترب من صفات الجمال .

أما إذا اشتبه عليك قوله تعالى : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة] وقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ .. ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران] فاعلم أن النار جند من جنود غضب الله ، فمن يتقى اللهَ يتقى النارَ ، فلا تعارضَ إذن .

ومعنى ﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب] أى : قولاً صادقاً يُوصل للحق ، وكلمة سديد من سداد السهم ، حين يصيب هدفه ولا يُخْطئه ، وهدفك أنْ تنعم بذات الله فى الآخرة ، وأنْ تنفض الأسباب التى فى الدنيا ، وتعيش مع المسبِّب سبحانه .

فأنت فى الدنيا حين تريد أن تأكل مثلاً انظر إلى الطعام الذى أُعدَّ لك ، كم أخذ من وقت وإمكانات وأموال .. إلخ ، أما فى الآخرة ، فمجرد أنْ يخطر الشىء على بالك تجده بين يديك ، إذن : هذه معية يجب أنْ تحرص عليها كلَّ الحرص .

ثم يذكر لنا الحق سبحانه نتيجة القول السديد ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب] أى : فى الآخرة ، ووصف الفوز بأنه عظيم ؛ لأنك فى

الدنيا تأخذ عطاء الله بأسباب الله ، أما فى الآخرة فتأخذ عطاء الله من ذات الله ، وليس هناك أعظم من هذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

العَرْض : إدارة معروض على معروض عليه ، كما نرى مثلاً فى العرض العسكرى ، حيث تمر نماذج من الجيوش والأسلحة أمام القائد ، ومنه قوله تعالى فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ[1] الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ [ص]

ومنه قولك : عرضتُ على فلان الأمر يعنى : أطلعتُه عليه ، ليرى فيه رأيه يقبل أو لا يقبل ، فالعرض تخيير لا إلزامَ فيه .

فالحق سبحانه يقول : عرضت الأمانة على خَلْقى كلّ خَلْقى ، ومنه الإنسان والحيوان والجماد والنبات لأرى مَنْ منهم سيقبل تحمُّلها ، ومَنْ سيرفض ، إذن : معنى العَرْض أن هناك مَنْ سيقبل ، وهناك مَنْ سيرفض .

لذلك قُلْنا : من الخطأ : أن نقول : إن الأرض والسماء والجبال .. إلخ مُسَيَّرة مقهورة ، بل يجب أنْ نُعدِّل العبارة فنقول هى مقهورة باختيارها ؛ لأن الله حين عرض عليهن الأمانة أبيْن أن يحملنها وأشفقْنَ

(١) صفن الجواد : قام على ثلاث أرجل وثنى الرابعة وهذا يدل على كرمه . [القاموس القويم ١/٣٧٩] وهو قول مجاهد ، ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٣) . وقال إبراهيم التيمى : كانت عشرين فرساً ذات أجنحة ، رواه ابن جرير .

منها ، وقالت : نخرج من باب الجمال ، فاختارتْ ألاَّ تكون مختارة .

ومعنى الأمانة فى عُرْفنا هى المال ، أو الأشياء النفيسة التى تخشى عليها الضياع ، فتُودعها عند مَنْ تلتمس فيه أنه يحافظ عليها لحين حاجتك لها ، وليس لك أنْ تأخذ ممَّنْ ائتمنته صكاً ، ولا أنْ تُحضر شهوداً ، وإلا ما أصبحت أمانة ، إذن : ليس عليها إثبات إلا أمانة مَنْ أخذها ، فإنْ شاء أَقرَّ بها وأدَّاها ، وإنْ شاء أنكرها .

فالأمانة إيعاد النفس بأن تكون مختارة فى الفعل وغيره ، فإنْ كانت مقهورة بصَكٍّ ، أو بشهادة شهود لم تَعُدْ أمانة .

والأمانة التى عرضها الحق سبحانه على خَلْقه هى أمانة الاختيار فى أنْ يكون مختاراً فى أنْ يؤمن أو يكفر ، فى أنْ يطيع أو يعصى ، فكل ما عدا الإنسان رفض التحمُّل ؛ لأنه لم تأخذه الحمية وقت العَرْض والتحمُّل ، مخافة أنْ يأتى وقت الأداء ، فلا يجد له ذمة .

وفَرْق بين وقت التحمُّل ووقت الأداء ، فمَنْ يلاحظ وقت التحمل فقط يُقدِم عليها ويقبلها ، لكن مَنْ يلاحظ مع التحمُّل الأداءَ يرفض ، فربما مع حُسْن النية والرغبة فى الأداء تتغير الظروف ، أو تتغير الذمة ، أو يطرأ عليك ما يُحوجك لها ، فتمتد إليها يدك ، فيأتى وقت الأداء ، فلا تستطيع .

كل أجناس الوجود ما عدا الإنسان أبَوْا ، أنْ يحملوا الأمانة واختاروا القهر والتسيير للخالق عز وجل ؛ لأن الإنسان كما وصفه ربه ﴿ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

كذلك وصل عباد الله الصالحين إلى منزلة العبودية لله حين وجَّهوا اختيارهم حَسْب مراد ربِّهم ، فالله أعطاهم الاختيار فى الإيمان أو الكفر فآمنوا ، وأعطاهم الاختيار فى الطاعة وفى المعصية فأطاعوا ، فوجَّهوا اختيارهم إلى ما أحبَّ ربهم ، فصاروا من عباده المقربين .

فكأنك إذن تنازلتَ عن اختيار نفسك فى حرية الحركة ، فصِرْتَ كالسموات والأرض والجبال حين تنازلن عن اختيارهن لاختيار ربها ووصلْتَ - مع أنك مختار - إلى أنْ لا تختار إلا ما وضعه الله لك منهجاً .

هنا يحلو للبعض أنْ يقول : كيف عُرِضَتْ الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وهى جمادات ، وكيف لها أنْ تأبى ؟ ... إلخ نقول : أنت أدخلتَ نفسك فى متاهة ، وهل كان العرض منك أنت حتى لا تفهمك الجمادات ؟ أم كان العرض من ربها وخالقها ؟

ساعة ترى فعْلاً يحدث منك ويحدث من الله ، إياك أنْ تعزل الحدث عن فاعله ، والله يقول : ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** (١٤) ﴾ [الملك]

فهو سبحانه خالقها ، وهو الذى يخاطبها ، ولم تنكر ذلك ، وقد علَّم الله بعض رسله مثلاً لغة الطير فعرفها وتفاهم معها ، كما قال سبحانه عن نبيه سليمان أنه قال : ﴿ **عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ** .. (١٦) ﴾ [النمل]

وقال ﴿ **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا** .. (١٩) ﴾ [النمل]

وقال عن تسبيح الجبال مع سيدنا داود عليه السلام ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ** .. (١٠) ﴾ [سبأ] فالجبال ، نعم تُسبِّح فى كل حال ،

لكن الذى امتـاز به سيدنا داود أنْ يوافق تسبـيحُه تسبـيحَ الملائكة ، وكأنهم جميعاً فرقة ينشدون نشيداً واحداً .

إذن : الخـالق سـبحـانه هو الذى يـخاطب مـا يشـاء من خَلْقـه ، ولو علَّمك أنْ تخاطب الجـمادات لخاطبتـها ، وتأمل مثلاً قـصة الهدهد وسيدنا سليـمان حين ذهب إلى أهل سبأ ، ووجدهم يعـبدون الشمس من دون الله ، وكيف أنه كان على فقه تام بقضية التوحيد .

فـأرحْ نفسك وانْسبْ الفـعل إلى فـاعله وأنت تستـريح ، ولك فى تصرفات حياتك أُسْوَةٌ ، فأنت مثلاً لو دخل عليك ولدك مُمزق الثياب ، يسيل منه الدم ، قبل أنْ تسأله عن شىء تسأله : مَنْ فعل بك هذا ؟

لا بُدَّ أن تحدد الفـاعل أولاً ، فعليـه ستبنى حكمك وقـرارك ، فإنْ كان الفـاعل ابنَ الجيران مثـلاً تقيم الدنيا ولا تُقعـدها ، وإنْ قال لك : عـمِّى فلان ضـربنى تهدأ أعـصابك ، وتـقول للولد : لا بُدَّ أنك فـعلتَ شيئاً استحق العقاب ، ولو ذهبتَ إلى عمه لعرفتَ فعلاً أن الولد ارتكب خطأ ، إذن : الفـعل الواحـد يمكن أنْ يكون سيـئـاً ، ويمكن أن يكون حسناً ، المهم مَن الفاعل ؟

وآياتُ القرآن يساند بعـضها بعضاً ، وتسعـفنا فى هذه المسـألة ، فالذى قال ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ** .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] قال ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فكل شىء فى الوجود كله مُـسبِّح ، فدلَّ هذا على أن المـوجودات لها دلالة عن ذاتها ، وتستطيع أنْ تبـين عما فى مرادها ، ونعجب من بعض العلمـاء حـين يقـول : هذه دلالة حال ، لا دلالـة مقـال ، وهذا القول يرده قوله تعالى : ﴿ **وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]

ونحن نفهم تسبيح الدلالة ، ونراه فى انسجام جزئيات الكون ونظامه البديع ، والحق يقرر أننا لن نفهم هذا التسبيح . إذن : هو تسبيح مَقال على الحقيقة لا يعرفه إلا مَنْ عرّفه الله . ولِمَ نستبعد تسبيح الكائنات ، ونحن نرى لبعض الطوائف والمهن (شفرات) وإشارات لا يفهمها غيرهم ، وفى اللغة الواحدة يمكن أن تسمع كلمات لا تعرف معناها ، فضلاً عن اختلاف اللغات بين الجنسيات المختلفة .

فإذا كنتَ لا تعرف بعض المعانى فى لغتك ، وإذا كنت لا تعرف لغات الآخرين وهم من بنى جنسك ، فلماذا تنكر أنْ يكون للأجناس الأخرى فى الوجود لغات يتعارفون عليها ، ويُعبِّرون بها ؟

ثم أكُلّ اللغات ووسائل الفهم منطوقة ؟ أليستْ هناك مثلاً لغة الإشارة ، يتعارف عليها البعض ، ويفهم بها ؟ ومع ذلك هناك قَدْر مشترك ومنطق فى الدلالة يتفق عليه الجميع فى كل اللغات ويتفاهمون به ، كما يتفاهم الخُرْس مثلاً ، كما أن هناك أشياءً تتفق فيها كل الطباع كالضحك والبكاء ، فليس هناك ضحك عربى ، ولا بكاء فرنسى مثلاً .

ومعنى حَمْل الأمانة أى : القيام بها وتطبيقها ، كما جاء فى قوله تعالى فى معنى الحَمْل : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** .. (٥) ﴾ [الجمعة]

فقد حملوها كمنهج وحفظوا ما فيها ، لكن لم يحملوها بمعنى : لم يُطبِّقوا هذا المنهج ، فصار مثَلهم عند الله كمثل الحمار الذى يحمل الكتب ، وهو لا يستفيد مما فيها ، وهذا فى حَدِّ ذاته ليس ذمّاً للحمار ، وليس اتهاماً له بالغباء كما يدَّعى البعض ، فالحمار ليس شغله الفهم إنما الحَمل . فحسب ، فمَنْ حمل منهجاً دون أنْ يستفيد

به فهو شبه الحمار فى هذه المسألة ، وهذه خصوصية للحمار ـ أنه يحمل ما لا يفهم .

والحمار فى أمور أخرى يفهم ويؤدى مهمته على الوجه الذى ربما عجز عنه الإنسان ، فمن المعروف عن الحمار أنه إذا ذهب إلى مكان فإنه لا ينساه ولا يضل عنه ولو بعد فترة ، وربما يضلّ الإنسان طريقه الذى سار فيه منذ فترة ، أما الحمار فلو تركتَ له حرية الحركة لذهبَ بك إلى نفس المكان . إذن : مَن الغبى ؟

لذلك فالبعض يسأل : إذن لماذا يتهمون الحمار بالغباء ؟ قالوا : لأنهم كلَّفوه بما لم يُكلِّفه الله به ، فالحمار خُلق للحمل ، وأنت تريده على درجة من الفهم ربما تفقدها فى الإنسان العاقل .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا أردتَ من الحمار أنْ يقفز فوق قناة مثلاً أوسع من إمكاناته ، فإنه لا يطاوعك أبداً فمهما ضربته لا يُقدم على القفز ، فإنْ كانت فى مقدوره نظر إليها وكأنه يُقدِّر اتساعها بالضبط ، ثم يقفز دون أنْ تجبره ، وهذا التصرف تصرف مَنْ يحسب العواقب جيداً ، ويفهم ما يفعل .

إذن : الشىء لا ينفصل عن مهمته ، ولا يطلب منه فوق ما هُيِّىء له ، ومثَّلنا لذلك بعود الحديد ترى جماله فى استقامته ، فإنْ أردته خُطَّافاً مثلاً فجماله وأداؤه لمهمته لا يتم إلا بعوَجه ، وساعتها لا تستطيع أنْ تقول عنه إنه مُعْوج ؛ لأن هذا العوج هو عَيْن الاستقامة لمهمته .

لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ [لقمان] ليس ذماً لصوت الحمار ؛ لأن صوت الحمار جعله الله عالياً هكذا ؛ لأنه يعيش فى بادية ، وغالباً ما يستتر خلف مرتفع

أو حجر أو شجرة أو يبتعد مسافة طويلة عن صاحبه ، فجاء صوته بهذه الهيئة ليدل عليه ويُرشد صاحبه إلى مكانه .

إذن : فالصوت العالى يكون مُنكراً إذا لم يكُنْ له مهمة ، وإذا استُعمل فى غير موضعه ، والشىء قد يكون مختلفاً ، لكن مهمته تكون متحدة .

مثلاً ، الدم الذى به حياة الإنسان إذا تجلط داخل أوعيته يؤدى إلى شلل العضو ، ويحتاج إلى أدوية تعيد له سيولته ، وفى المقابل إذا زادت سيولة الدم أدى ذلك إلى نزيف ، وإذا حدث جُرْح مثلاً لا يندمل ؛ لأن الدم لا يتجلط ولا يسدّ أماكن خروجه ، إذن : تجلُّط الدم مطلوب خارج الأوعية ، وسيولة الدم مطلوبة داخل الأوعية . إذن : لكل منهما حكمة فى مكانه .

ومعنى : ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] أى : خفْنَ وقت التحمل مخافة أنْ يأتى وقت الأداء فلا يؤدى ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] لما عنده من فكر واختيار ومحاولة ، لكن قد يأتى فكره بالضرر .

وقلنا : إن الإنسان يأكل مثلاً حتى يشبع ، ثم يُعرض عليه الحلو والبارد ، فتمتلىء بطنه حتى التخمة وحتى المرض ، فى حين أن الحمار أو الجاموسة مثلاً لا تأكل عوداً واحداً فوق الشِّبع ؛ لأنها محكومة بالغريزة التى لا تعرف التصرف فى الأشياء ، وميزة الحيوان فى هذه الغريزة وفى عدم تصرفه .

لذلك وصف الإنسان هنا بأنه ﴿ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] وهذه صيغة فَعُول الدالة على المبالغة فى الظلم والمبالغة فى الجهل . وقد يُعقل الظلم للغير ؛ لأن الظالم يظن أنه يستفيد منه ، أمّا أنْ يظلم المرءُ

نفسه بأنْ يمنعـها خيراً ، أو يجلب لها ضُراً ، فهـذا ما لا يُعقل ودليل الغباء .

فحين يتكاسل عن الطاعة لشهوة نفس موقوتة يمنعها خيراً باقياً ، ومتعـة لا حدودَ لها ، فهـو عدو لنفسه ؛ لذلك قـال العلماء : إن نفس الإنسان هى أعدى أعدائه ؛ لأن العـدو إنْ كان من خارجك تستطيع أنْ تراه ، وأنْ تحتاط له ، أمّا إنْ كان من داخلك فأمره شاقّ .

وقد بيَّن الحق سـبحانه أن أعظم الظلم الشـرك بالله ، فقال سبـحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] وهذا الظلم أيضاً لا يعود ضرره على الله تعالى ، إنمـا يعود على المشرك بالله ؛ لذلك وصف الإنسـانَ بعد الظلم بأنه جـهـول ؛ لأنه يـظلم نفسـه ، وهذا يدل على الجــهل وعـدم العلم ، والجهول هو الذى يقع فى الخطأ ويعدل عن الحق عن جهل ، فالوصف هنا يدل على الحكمة الأدائية ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾

أولاً : يلفت أنظارنا أن الآية الـسابقـة ذُيِّـلَتْ بقـوله تعـالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَـهُـولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] وذُيِّلَتْ هذه الآية بقـوله سـبحـانه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا (٧٣) ﴾ [الأحزاب] فكأن وصف (ظَلُوماً) قابله (غَفُوراً) ، و (جَهُولاً) قابله (رَحيماً) .

فـالحق سبـحانه غـفـور لمن ظلم ، ورحيم لـمن جهل ، فـالنسق

القرآنى مظهـر من مظاهر رحمـة الله ، والله سبحانه وتـعالى عُلم عنه ممَّنْ آمن به أنه غفـور رحيم ، لكن لا ينبغى أنْ تغرَّك صفـات الجمال فى ربك ـ عز وجل ـ فتُقـدِم على الذنب وتظلم ، اعتماداً على أنَّ ربك سيغفر وسيرحم .

لذلك قالوا فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ ﴾ [الانفطار] أن الذى غَرَّ الإنسان بربه فـعصاه أو كفر به اعـتماده على أن ربه كريم ، فصفة الكرم فى الله هـى التى أغرَتْ بعصيانه .

وكأن الحق سبـحانه لقَّنَ الإنسان الجواب عن هذه المـسألة ، فإنْ سُئل : مـا غرَّك بربك ؟ يقـول : كرمـه ، وعندنا فى الفلاحـين يسأل أحدهم الآخـر : لماذا لا تطمـئن فى صلاتك ، وتنقـرها هكذا أرأيتَ لو كان عليك (شلن) لواحـد هل يصلح أن تعطيه (شلناً ممـسوحاً) ؟ فردَّ عليه الرجل : والله لو كان كريماً لقَبله .

وفى الآية دقيـقة أخرى فى قـوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ .. ۝ ﴾ [الأحزاب] فهل كان عَرْضُ الأمانة والتكليف للناس ليُعذبهم ؟ هل التعذيب مقصود لله فى الحكم ؟

قـالـوا : لا ؛ لأن اللام هنا ﴿ لِيُـعَـذِّبَ .. ۝ ﴾ [الأحـزاب] لام العاقـبة ، فالحق سـبحـانه جعل التكليف ليتـبعـه الناس ولا يعذبون ، فاللام دلَّتْ على النتـيجة . كما فى قـوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۝ ﴾ [القصص]

فسـاعة التقطه آل فـرعون التقطوه عـليه السلام ليكون قُـرَّة عَيْن لهم ، لا ليكون عدواً ، لكن الذى حدث أنه صـار عدواً وحَزَناً ، فاللام ليست للتعليل ، إنما لام النتيجة والعاقبة ، وهى أن تفعل الشىء لمراد عندك ، ثم تأتى العاقبة لتدلّ على غباء الذى فعل .

وقوله : ﴿ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] سبق أنْ عرَّفنا النفاق ، وقلنا : إن النفاق أشدُّ من الكفر ؛ لأن الكافر كان منطقياً مع نفسه ؛ لأنه كفر بقلبه وبلسانه . يعنى : وافق لسانه ما فى قلبه ، أما المنافق فغير منطقى مع نفسه ؛ لأنه اعتقد شيئاً ونطق بخلافه : أخفى الكفرَ وأظهر الإيمانَ فهو مُشتَّت الفكر ؛ لذلك استحق أنْ يكون أعدى الأعداء ، وأن يكون فى الدَّرْك الأسفل من النار ، ويكفى ما فيه من خداع وتمويه ، فهو بظاهره معك ، وفى حقيقته هو عدوك .

ونلحظ أيضاً فى هذه الآية أن الحق سبحانه أراد أنْ يفصل فصلاً تاماً بين جزاء المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، وبين جزاء المؤمنين والمؤمنات ، فالأسلوب البشرى يقتضى أن يقول بعدها: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ويتوب على المؤمنين والمؤمنات .

لكن السياق القرآنى هنا لم يعطف التوبة على العذاب وفصل الفعلين بتكرار الفاعل الصريح ، وهو لفظ الجلالة فقال ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] وقال ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ليفصل هذا عن هذا ، ويعزله بحكم خاص به ؛ لأن لله تعالى ـ كما ذكرنا ـ صفات جلال ، تختص بالكافرين والمنافقين ، وصفات جمال تختص بالمؤمنين ، ولكل من النوعين سياق خاص مستقل .

سُورَةُ سَبَإٍ